

صيد الخاطر

122 - - فصل : التوبة النصوح .

من أراد دوام العافية و السلامة فليتنق D .

فإنه ما من عبد أطلق نفسه في شيء ينافيه التقوى و إن قل إلا وجد عقوبته عاجلة أو آجلة .

و من الإغترار أن تسيء فترى إحسانا فتظن أنك قد سومت و تنسى : { من يعمل سوءا يجز به } .

و ربما قالت النفس : إنه يغفر فتسامحت و لا شك أنه يغفر و لكن لمن يشاء .

و أنا أشرح لك حالا فتأمل به فكرك تعرف معنى المغفرة .

و ذلك أن من هفا هفوة لم يقصدها و لم يعزم عليها قبل الفعل و لا عزم على العود بعد الفعل ثم إنتهى لما فعل فإستغفرا كان فعله و إن دخله عمدا في مقام خطأ مثل أن يعرض له مستحسن فيغلبه الطبع فيطلق النظر و يتشاغل في حال نظره بالتذاذ الطبع عن تلمح معنى النهي فيكون كالغائب أو كالسكران فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله فقام الندم بغسل تلك الأوساخ التي كانت كأنها غلطة لم تقصد .

فهذا معنى قوله تعالى : { إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون } .

فأما المداوم على تلك النظرة المردد لها المصير عليها فكأنه في مقام متعمد للنهي مبارز بالخلاف فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره .

و من البعد ألا يرى الجزاء على ذلك كما قال ابن الجلاء : رأني شيخي و أنا قائم أتأمل حدثا نصرانيا فقال : [ما هذا ؟ لترين غيها و لو بعد حين] فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

و اعلم أنه من أعظم المحن الإغترار بالسلامة بعد الذنب فإن العقوبة تتأخر .

و من أعظم العقوبة ألا يحس الإنسان بها و أن تكون في سلب الدين و طمس القلوب و سوء

الإختيار للنفس فيكون من آثارها سلامة البدن و بلوغ الأغراض .

قال بعض المعتبرين : أطلقت نظري فيما لا يحل لي ثم كنت أنتظر العقوبة فألجئت إلى سفر طويل لا نية لي فيه فلقيت المشاق ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندي و ذهاب أشياء كانت لها وقع عظيم عندي ثم تلافيت أمري بالتوبة فصلح حالي ثم عاد الهوى فحملني على إطلاق بصري مرة أخرى فطمس قلبي و عدمت رفته و أستلب مني ما هو أكثر من فقد الأول و وقع لي تعويض عن المفقود بما كان فقدته أصلح فلما تأملت ما عوضت و ما سلب من صحت من ألم تلك السياط .

فها أنا أنادي من على الساحل : إخواني احذروا لجة هذا البحر و لا تغتروا بسكونه و عليكم بالساحل و لازموا حصن التقوى فالتقوية مرة .
و إعلموا أن ملازمة التقوى مرارات من فقد الأغراض و المشتبهات غير أنها في ضرب المثل كالحمية تعقب صحة و التخليط ربما جلب موت الفجأة .
و باء لو نتم على المزابل مع الكلاب في طلب رضى المبتلى كان قليلا في نيل رضاه و لو بلغت نهاية الأمانى من أغراض الدنيا مع إغراضه عنكم كانت سلامتكم هلاكا و عافيتكم مرضا و صحتكم سقما و الأمر بآخره و العاقل من تلمح العواقب .
و صابروا رحمكم الله تعالى هجير البلاء فما أسرع زواله .
و الله الموفق إذ لا حول إلا به و لا قوة إلا بفضله